

الفصل الثانى

التاريخ الجاهلى

لايدين التاريخ العربى بشىء للتاريخ الاغريقى ، وبالقليل للتاريخ الفارسى، إن كان يدين له فعلا ، وذلك أمر واضح : ولكنه يظهر أيضا مستقلا عن التواريخ العربية الجاهلية . ولدينا القول الشائع « الشعر ديوان العرب » ، أى سجل أعمالهم . وهذا القول الذى يبدو عليه أنه قديم ، يقتضى أنه لم توجد سجلات أخرى فى الحجاز . ويؤكد هذا القرآن ، الذى كثيرا ما يتهم المكيين بالأمية . والنقوش الجاهلية المدونة بالعربية التى جعل منها القرآن اللغة الفصحى غاية فى السندرة : من السندرة بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون تجارب لكتابة لغة لم تكن تستخدم فى ذلك الغرض من أن تكون أمثلة لعمل مألوف : لأن أحد هذه النقوش مدون بخط سامى آخر . والنصوص النبطية التى عثر عليها دوتى Doughty فى شمال بلاد العرب مدونة بلهجة آرامية مختلطة خلطا عجيبا بالألفاظ والأقوال العربية . وهناك اقتراب شديد من العربية الفصحى فى بعض النقوش الدينيية Confessionad التى عثر عليها فى جنوب بلاد العرب مدونة بالخط الحميرى أو العربى القديم ؛ أما النقوش الكثيرة الاخرى التى عثر عليها الرواد فى شمال بلاد العرب فمدونة باللهجات الاخرى ، ولها أهميتها العظيمة لتنوع الخطوط المستعملة، ولكنها قلما تدل على وجود أدب .

كذلك لا تدل خصائص اخراقات الجاهلية المدونة في أمثال كتاب تاريخ مكة للأزرقي ، وتواريخ الطبرى وياقوت الجاهلية ، و المجموعات الكثيرة المحفوظة في كتاب الاغانى ، لا تدل على وجود ما يستحق أن يسمى تاريخا . بل إن الوثائق التى نجدها أحيانا منسوبة إلى ذلك العصر ، تثير قدرا كبيرا من الشك . وقد أدخل الدينورى المؤرخ واحدة من هذه الوثائق فى تاريخه . فقد أرسل من يلقب الكرماني ، فى أواخر العصر الاموى ، إلى أحد أبناء أبرهة بن الصباح ، آخر ملوك حمير (كما يقول) ، وكان يقيم فى الكوفة ، يسأله أن يعيره صورة المعاهدة التى عقدت بين ربيعة واليمن فى العصر الجاهلى ، فأرسلها إليه : فقرأها الكرماني على أشرف ربيعة واليمن . والوثيقة مسجوعة ، وتحتوى على إشارات إلى شعائر وثنية مختلفة ، وإن بدأت بالعجـارة « بسم الله العلى الاعظم ، الماجد المنعم » وتستشهد « الله الأجل ، الذى ما شاء فعل » . ويسمى الملك الذى عقدت المعاهدة أمامه تبع بن ملكيكرب ، ولا تبين علاقته بالمعاهدين .

وتاريخ الدينورى ، كما سنرى هنا ، قليل القيمة ، إذ إن هذه الوثيقة ليست أقدم من المؤرخ كثيرا ، مثلها فى ذلك مثل كثير من الاشعار والرسائل التى يستشهد بها فى أخباره ، فيما يبدو . وحقا يشك فى صحة نسبة الكتاب نفسه إلى الدينورى . والصعوبات التاريخية المتعلقة بهذه الوثيقة لها خطرها ، حتى ولو كان ما بها من آثار صحيح ، حين تقرر كيف خلطت القبائل المتحالفة دماءها بالخمير ، ثم شرحها الفريقان كلاهما ، وجزت نواصيها ، وقلمت أظافرها ، وجمعت ذلك فى صر ، ودفتته تحت ماء غمر : لانه توجد أدلة على أنهم كانوا يفعلون ذلك لتوكيد المعاهدات . ولكن لا شك أن الامر الذى يثير أعظم الدهشة فى هذه الوثيقة التزام السجع فى عريبتها الفصحى . كان يجب أن نتوقع وجوده فى إحدى اللهجات

المستعملة في الآثار التاريخية إلى عهد قريب من ظهور الإسلام . ويثور الشك نفسه في الاحوال الاخرى التي يورد فيها المؤرخون تأليف جاهلية نثرية . ومن الواضح أنه في هذه الحالة لم يذكر الموضوع الذي عقدت فيه المعاهدة ، وإن بدا ذلك على جانب كبير من الأهمية . ويذكر الشهر الاصم ، وهو رجب ، ولكن لا تذكر السنة.

وإذا تصادف أن كانت هذه الوثيقة صحيحة ، وجب أن تراجع كثيرا من أفكارنا : لأن المؤرخ لا يذكر هذا الحلف باعتباره مثلا وحيدا ورد إلينا من العصر الجاهلي من هذا النوع من الوثائق ، وإنما باعتباره أمرا طبيعيا أن تحفظ أعمال الجاهليين في موضع ما : ويمكن أن يؤلف تاريخ دقيق ومستمر بعض الاستمرار من مجموعة من أمثال هذا الحلف . وحقا لا يشكو مؤرخو هذا العهد من نقص السجلات ، كما شكها المؤرخ الأرميني موسى الخوريني *Moses of Khorene* وهم مؤمنون كل الإيمان أن الوسيلة الصحيحة لنقل التاريخ هي الرواية لملاحظة غياب الراوى. بل عندما وجدت المدونات من أى نوع ، كان المسلمون أميل إلى نسيانها: إذ إنها تنتمي إلى ماض ، طرحوه وراء ظهورهم. وكانت المآثر التي دونتها الآثار ، كما سنرى ، مآثر آلهة وثنية ، صارت الآن ما يسميه الإسرائيليون المحظورات . ولكن الإسلام أدى أيضا إلى هجرة واسعة، وكان ما جلبه المهاجرون معهم ديننا جديدا ، لا صلة له أو على صلة صغيرة بالدين القديم .

وسأوجه الانظار فيما بعد إلى أول هذه الاسباب لغموض التاريخ الجاهلي كما يظهر في المجموعات العربية . ولا بد أن السبب الثاني ، وهو التنقل والهجرة ، أسهم إسهاما قويا في بلوغ تلك النتيجة . وعُدّت المدينة موطن المعرفة ، كما نعرف من الامام الشافعي وغيره : وبرغم ذلك قلما ترجع هذه المعرفة إلى ما قبل هجرة

النسب إليها ، لأن ذلك الحادث أدى إلى تغيير جوهرى فى سكانها . فترح كثير من سكانها القدماء : واكتظت المدينة بالمهاجرين الداخلين فى الاسلام . وتلا ذلك سريعا الفتوح الاولى للخلفاء ، أو صاحبها هجرات قبلية : ولكن القبائل احتفظت بعزلتها إلى درجة ما ولحقة طويلة فى مواطنها الجديدة . ولا بد أن الحالات التى كانت يحتفظ فيها المهاجرون بمدونات يحملونها معهم كانت نادرة ، إن وجدت إطلاقا . وكان فى جنوب بلاد العرب نقوش تاريخية دون فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وأحيانا عزائم مجالسهم . والمسألة هى إذا ما كان لديهم ، بالإضافة إلى مدوناتهم على النحاس والحجر التى لا يمكن أن تقرأ إلا فى المواضع التى نُصبت فيها ، أدبٌ ، أعنى نسخا من النصوص أنفسها مدونة على مواد أقل رداءة من السابقة ، من البردى ، والرق ، والسعف . ويومئذ رحالة محدث إلى وجود مثل هذه النصوص ، ولكن إيماءته غامضة ولم تُتحقق . وقد اعتبر باحث ألماني فى نقوش جنوب بلاد العرب وجود مثل هذا الأدب أمرا مؤكدا ، وقد ذكر كتاب الاغانى فعلا نصوصا حميرية مدونة على مواد استطاع حملها : ومهما يكن الأمر فيجب أن تترك هذه المسألة الآن دون أن يقرر فيها أمر ما . أما ما يوضحه اكتشاف النقوش وحل رموزها فهو أن عملية تسجيل الاحداث وُجدت فى تلك المنطقة منذ زمن لا تعيه الذاكرة .

ويبدو أنه لم يعن بهذه الآثار إلا اثنان من المؤلفين العرب : الهمداني ، مؤلف صفة جزيرة العرب ، ورسالة عن الابراج والحصون فيها : لم يصل إلينا منها غير جزء صغير ؛ ونشوان الحميرى ، مؤلف معجم يلقى بين حين وآخر أضواء على لغة تلك النصوص . ولا تزال بعض النقوش التى درسها الهمداني موجودة . وترد بين حين وآخر شواهد من أشعار يظن أنها منظومة باللغة العربية الجنوبية عند النحويين ، الذين احتفظوا ببعض الصيغ النحوية التى أيدت النقوش بعضها ، ومن المؤكد

صحة بعضها الآخر ، وإن لم نجد نقشا إلى اليوم يحتوى على أمثلة منها . وقد أحضر وِلِسْتَد Wellested وكروتندن Crutenden انضابطان الرحالتان الانجليزيان النسخ الاولى من هذه النصوص إلى أوروبا . وكان أول من فسرها في شيء من الصحة في ألمانيا ، هو أزياندر Osiander ، الذى نُشر كتابه بعد وفاته . ومن الطبيعى أنه اُتُرف عدة أخطاء ، بسبب توحيد بين العبارات السنية والعربية الفصحى . ولذلك ترجم عبارة خاصة بقوله « لأن الله استمع إلى طلبه » ، على حين أن المعنى الحقيقى هو « مأمورا من الكاهن » . وقد جمع العالم الفرنسى هليفى Halévy والرحالة النموسى جلازر Glaser مجموعات كبيرة من النقوش أو نسخا منها . وسرعان ما كشف النقاب عن أربع لهجات ، هى لغات الممالك العربية الجنوبية الأربع التى لا حظها الباحثون الاغريق: وبرغم ذلك من المستطاع تصنيف هذه اللهجات فى صنفين، نسميهما مجموعة (س) ومجموعة (هـ) وفقا لاستخدام كل من هذين الحرفين فى بعض اللواحق التى تلتصق فى أول الكلمات أو آخرها . ومن الممكن تباع تقدم الدراسة فى النشرات البطيئة الظهور التى كانت تصدرها هيئة المنقبين الفرنسيين French Corpus Inscriptiorum ، والتى تداول الفصل الحميرى منها ثلاثة من المحررين ، وهو الفصل الذى يتوقع العلماء استمراره فى شغف .

ولا تزال واحدة من الممالك الرئيسية الأربع التى تنتمى إليها هذه النصوص - لان عدد الممالك كان فعلا أكثر من ذلك كثيرا - تحتفظ باسمها باعتباره إقليميا أو منطقة من بلاد العرب . تلك هى حضرموت ، المذكورة فى العهد القديم . وكثيرا ما تذكر سبأ فيه أيضا ، وإن كان موقعها يبدو مخالفا لما تزعمه النصوص . ومعين أقل شهرة ، ولكنها لها أثرها فى المدونات الانجيلية . وعرف الاغريق قتبان ،

ولكن التاريخ الخارجى سكت عنهم عند غيرهم. وبرغم ذلك أمدتنا هذه المملكة بنصوص فى الآثار أغزر كثيرا مما أمدنا به غيرها . وحين تحل مشاكل النحو والالفاظ ، إن حلت ، ستعرف عن منشآت الجمهورية القتبانية أكثر مما نعرفه عن أية دولة أخرى من هذه الدول ، بالرغم من أننا ربما لم نعرف الكثير عن مهارتها الحربية .

وقد نسمى كثيرا من النقوش سجلات تاريخية ، وإن كانت تألف عادة من أسباب تقديم بعض النذور إلى الآلهة. وتستهل مثل هذه النقوش باسم أو أسماء مقدمى النذور، ويليهما قائمة بالنعم التى استحق الآله من أجلها النذور . ومعظم هذه النعم شخصى : إكسابهم حب سادتهم سبب عام جدا للنذور . وسجل على هذه الآثار كثيرا أيضا النجاح فى المغامرات التجارية ، والشفاء من المرض ، والحصول على الحبوب وموارد المياه .

وتتنمى إلى هذا الصنف ، النصوص التى من هذا النوع ، وكثير مما اكتشف أولا وأرسل إلى أوروبا ، ومن الطبيعى أنه لا يستطيع اعتبارها تاريخية : وإن كان الضوء الذى تلقىه على الاحوال الاجتماعية بل والسياسية له شأنه فى الغالب ، والاعلام المدونة فيها لها أهميتها من نواح كثيرة : وبرغم ذلك ، توجد نصوص ، طويلة أحيانا ، تعالج أمورا لها أثرها فى الملوك والمجتمع بأسره ، وتستحق هذه النصوص أن تسمى تاريخية . ولم يُعَدّ النسخ والصور . وقد أسعدنا الحظ فى أحيان قليلة بالحصول على مجموعة كاملة من النقوش التى تعالج أحداثا واحدة أو مجموعة منها : ومن الممكن الافادة من المجموعة الاخيرة فى إقامة جداول للدول وفى بعض الاحيان فى اكتشاف الاحداث التى ميزت ظهور الدول، أو اتساع رقعتها ، أو انهيارها . وهى تعالج الشئون الداخلية خاصة ، كما نتوقع من سياسة هذه

البدول ؛ فمسجل ألوان الكفاح المدمر الناشبة بين المجتمعات العربية ، ولا تتصل بالشئون الخارجية إلا بعد التدخل الحبشى . والغريب أنها خالية من الزخرف والمبالغة ، فيما يبدو . ونمثل لذلك بمجموعة النقوش الحميرية ١٤٥٠ م C.I.H. : أهدى بعض الاشخاص الذين ضاعت أسماؤهم تمثالا ذهبيا لمولاهم تَعَلَب ريام ، أو تَعَلَب ريام : ويبدو أن كلمة « مولى » تعنى إلها صغيرا .

« لأنه أعان بنى حاشد في مدينة ناعط على قبائل حمير . تقدم مئتان وتوغلوا في أرض حمير ، حيث ذبحوا رجلا ؛ ولأن مئة وخمسين تقدموا إلى ماراد في أرض ألبان ، حيث أسروا رجلين . ولأن خمسين توغلوا في منطقة دلج ، حيث ذبحوا رجلا . ولأنهم هاجموا الحبشة في أرضه ٠٠٠ وذبحوا رجلا فيها . ولأن جماعة من البدو ، مئة مقاتل وعشرة ، أغاروا على برك ، وقتلوا رجلا . ولأن سادته ، بنى همدان ، قدموا إليه خيلهم وبسبب هذه الهدية ذبح فهدين ، وجميع ٠٠٠ في هذا ٠٠٠ » ثم يتقدم المؤلف إلى بعض النعم الشخصية التي أنعم عليه بها أو يضرع من أجلها .

وفي C.I.H. نقش طويل آخر (رقم ٣٣٤) من النمط نفسه ، وقد ضاعت سطوره الأولى ، ولكنه يدون قائمة بالخدمات التي أداها الإله تعلق ريام نفسه . وقد قدم سعد أحرس بن غضب ، المذكور بعد ، بعض القرابين ، ولعلها تمثال ذهبي ، تشريفا للإله ، لأنه :

« همهم في الحملات التي قاموا بها لمعاونة سيدهم شعر أوتر ملك سبأ وريدان ، ابن أهان بفتان ، ملك سبأ ، ولأنه أنقذ سيدهم شعر أوتر وجنده

السبائين والحميريين ، عندما خرجوا لقتال الاعز ملك حضرموت ، وجنده من الحضرميين (؟) : عندما هزم الاعز وجنده في ذات غراب هزيمة نكراء .

وقد عين شعر أوتر سعد بن غضب للأشراف على معسكر الملك والفريقين من الجند: ووضع على رأس منى محارب من بني هملان . فهاجم بنو ردمان المعسكر في يوم تقدمه : ولكن سعد أحرس بن غضب هاجم بكل من أتى معه من بني هملان ، وأجلوا بني ردمان عن المعسكر وقتلوهم ، بينما سلم معسكر سيدهم شعر أوتر وفرقتيه .

واعترافا بالجميل أشفى تغلب ريام خادمه سعد أحرس بن غضب ، من جرحين أصيب بهما عندما هاجم بنو ردمان في المعسكر . ولعله يواصل حمايته شعر أوتر في مدينتيه ماوة وسوار ، وينقذه . ثم أطرى سعد أحرس بن غضب قوة وقدرة تغلب ريام ، رب ترعة ، لأن سيدهم شعر أوتر وفرقتيه عادوا سالمين من جميع هذه الاعمال : ومنح تغلب خادمه سعدا عودا سليما ، وبضائع وأسرى وغنائم أرضته . ولعل تغلبا ٠٠٠ إلخ » .

والغرض الاساسى كما سنرى من هذه النصوص النذر ، أى تقديم الشكر لإله خاص : فيدوّن السبب ، الذى يصير ذا أهمية تاريخية عندما يكون خدمة ذات صبغة عامة ، كما في تلك الحالات التى كانت المساعدة فيها في الحرب . ونقترب في نقش جبل مأرب الثانى من الوثائق التاريخية الحقة ، إذ إن السجل ليس جزءا من شكر الإله . وهو من الحقبة المسيحية ، أى عصر الاحتلال الحبشى ، ويفتح افتتاحا مسيحيا * .

See Glaser's Reise nach Marib, 1913 , p 148. *

انظر جلازر : رحلة إلى مأرب ، ١٩١٣ م ، ص ١٤٨ .

« بقوة وجلال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس . نقش هذا الأثر أبرهة ، ممثل الملك الحبشى رحبىس زيمان ، ملك سبأ وذوريدان ، وحضرموت واليمن ، والبدو فى الجبل وهامة. ونقش هذا الحجر عندما عين يزيد بن كبشة مشرفا، وكانت أعماله مناقضة لتعهدة . فقد عين خليفة على بعض القبائل، وقائدا للجنود إلى جانب الخلافة . وكان معه عدد من القبائل والامراء (تعدد أسماؤهم) . وعندما أرسل الملك جريحا ذو زنبور للطواف فى المنطقة الشرقية بأمر من الملك ، قتله يزيد » . ويستطرد الخبر بعد أن يصف بعض أعمال يزيد هذا الأخرى : « ثم سمع الملك الأخبار ، واجتمع الاحباش والحميريون ، آلاف منهم ، فى شهر ذو قيزان من سنة ٦٥٧ ، وهبطوا فى وديان سبأ ، ونظموا أنفسهم من سرورة على نبط إلى عبران ، وعندما بلغوا نبط أرسلوا رماهم ضد قبيلة ٠٠٠ علوة ، فاستسلمت » . فعاد يزيد هذا إلى الطاعة بعد وقت قصير ، عندما انتشرت الاخبار بتحطم السد. يلى ذلك بعض التفاصيل العسكرية ثم يوصف إصلاح السد وصفا مسهبا .

وهذا النقش ، البالغ ١٣٦ سطرا ، والمؤرخ بـ ٦٥٨ - ٥٤٣ م ، مدون بلهجة غاية فى الصعوبة . ولعل اضطراب الاسلوب إنما هو واضح بسبب معرفتنا الناقصة أشد النقص بلغته ، أو لأنهم لم يكونوا قد بلغوا مبلغ الفصاحة فى تلك اللهجة . وهو يمثل تقدما على النمط الاقدم ، حيث لم يكن الغرض تسجيل الاحداث، وإنما تعليل تقديم القرابين للاله . وواضح أن غرض المؤلف فى نقش أبرهة تسجيل الاحداث المهمة . وجدير كل الجدارة بالملاحظة أن هذه الطريقة فى التسجيل غير مأمونة . إذ يذكر الملك ، مؤلفه ، فى نقش طويل مهم نشر حديثا ،

كيف أزال جميع الاسطر التي نقشها ملك مهزوم في قصوره ومعابده . ولا بد أن هذه الاسطر كانت تحتوى على سجلات مملكة غير مشهورة ، هي أوسان .

وجدير بالملاحظة أن الاحداث تؤرخ في نقش أبرهة بالشهر والسنة ، دون أن يخصص أى يوم من الشهر . ويبدو أن ذلك يتفق مع الاشتقاق العادى لكلمة « تاريخ » ، التى يفترض الباحثون فى أصول اللغة أنها آتية من الكلمة السريانية « إِرَخْ » التى تعنى « شهرا » .

ولحظة واحدة إلى هذه النقوش كافية لتبين لنا لماذا لم يعن المسلمون الأولون بمثل هذه السجلات لماضيهم . إذ أن ما تسجله ليس تاريخا قريبا أو وطنيا مباشرا ، كما نرى ، وإنما النعم التى أنعم بها إله خيالى ، وما قوبلت به من شعائر وثنية . ولا يمكن لاسماء هذه الآلهة نفسها إلا أن تسبب الذعر أو التسخيف : ويشير تقديم الصور المشاعر نفسها . وإذا كان حقا أن اليهودية انتشرت فى جنوب بلاد العرب بين العصور الوثنية والمسيحية ، فإن مسلك ذلك الدين حيال الآلهة والصور الوثنية من جميع الاصناف لا يقل عدااء عن الإسلام الأول : فالجمهور قد تعلم طرح مثل هذه الآثار قبل أن يسود الإسلام بزمن طويل . وتمائلها فى الكراهة، النقوش المسيحية ذات الاهمية التى قلما يستطيع الباحث الحديث أن يبالغ فى قدرها : لأن من الواضح أن الاستعمار الحبشى لم يترك فى جنوب بلاد العرب ذكريات حميدة أو شاكرة له . بل كانوا ينظرون فى فخر واعتراف بالجميل إلى عمل سيف بن ذى يزن المجيد فى طرد هؤلاء الغزاة بمعونة الفرس : ويظن أن عبد المطلب جد النبي رأس وفدا إلى اليمن لتهنئة الفاتح ، ويدعى الباحثون الاحتفاظ بخطبة قالها فى تلك المناسبة . ولكن العلم الحديث الذى لا يخاف تجدد أية عقيدة وثنية مهملة يعلق قيمة عالية على الوثائق التى طرح فى أجواء الغموض عندما ظهر الإسلام بحكم

طبيعة الظروف عندئذ . وفي الامكان ، بسبب العدد الكبير من النقوش التي عثر عليها ونسخت في جنوب بلاد العرب ، من ممالك مختلفة وأسرار مختلفة ، ولا زال كثير منها ينتظر النشر، على حين من المرجح أن غيرها لا يزال ينتظر من يكتشفه ؛ في الامكان جمع تاريخ تلك المنطقة بطريقة لم يكن من المستطاع الاستشراق إليها قبل أن تبدأ هذه الاستكشافات . وجدير بالملاحظة أن الالفباء الحميرية ، كما تسمى ، يبدو أنها كانت مستعملة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، إذ عثر حديثا على نقوش مدونة بذلك الخط في شمال شرقي بلاد العرب ، بجوار الكويت ، وفي الشمال الغربي منها ، بجوار مدائن صالح، التي اكتشف فيها كثير من الخطوط . ومع ذلك لم تكتشف نقوش تاريخية ذات قيمة شبيهة بقيمة التواريخ إلا في جنوب بلاد العرب . ولعل سبب ذلك أن التنظيم السياسي لتلك المنطقة كان أكثر تطورا كثيرا ، وأن العمليات كانت تجرى فيه على نطاق أوسع من الأقاليم الأخرى في شبه الجزيرة ، التي نجد أن النصوص التي عثر عليها فيها عبارة عن نقوش متواضعة النطاق من شواهد قبور أو قوائم بأعلام أو ندور .

وإذا عددنا أعمال الملوك والمجالس العامة تاريخيا ، فقد نضم إلى النقوش التاريخية ما يسجل منها التعيينات على اختلاف أنواعها ، كتعيين أراض للآلهة أو مزايا لطبقات خاصة ، أو جباية الضرائب أو تنظيم الحقوق في المياه . ولسوء الحظ أن اللغة في معظم الاحوال تواجهنا بصعوبات خطيرة جدا : فليس لدينا نحو ولا معجم ، وإنما نعتمد على صدفة ورود كلمة ما في عدد كاف من النصوص المختلفة لنتمكن من اكتشاف معناها مع شيء من التأكد . أضف إلى ذلك أن مجال هذه الدول الجاهلية غير يقيني جدا ، بسبب تغيير الاسماء المحلية ، وإن كنا لا نملك بعض النقوش حسب ، عن إحدى الممالك ، وهي أوسان ، بل لدينا مجموعة من

التمائيل الصغيرة المنقوشة التي تحفظ صور عدة أفراد من الاسرة المالكة . ويلاحظ سترابو الجغرافى ، الذين ندين له بوصف حملة اليوس جلوس Aelius Gallus الفاشلة ، سرعة تغير الاسماء فى بلاد العرب وما ينتج عن ذلك من صعوبات جغرافية .

وبقيت المواد لترجع إليها التواريخ ، ما بقيت هذه النقوش، وما عرفت اللغة المدونة بها ، وإن لم تؤلف تواريخ فعلية . وكان لدى عرب الجنوب فى الجاهلية حقبة ، كما رأينا ، ذات أهمية أولية لتدوين الاحداث . ورأى جلازر Glaser أنها معاصرة لسنة ١١٥ ق م . ولا شك أنها حقبة مهمة فى تاريخ الدولة السبئية . وعلى الرغم من عدم تأريخ كثير من النقوش التى لا حظناها ، نستطيع الحصول على الاتصال والاستمرار من أسماء الملوك ، الذين يذكرون آباءهم عادة ، وأجدادهم أحيانا ، بل أجدادهم الاولين .

وربما قيل إن التاريخ الممكن كشف اللثام عنه من هذه النصوص سيكون فى بعض الجوانب أقل قيمة مما تمدنا به التواريخ الإسلامية ، وأكثر اختلافا فى بعضها الآخر . وتدل النصوص التى مثل بها على عمليات تافهة : فإن كانت عبارة « ذبح رجلا » صادقة تماما ، لم تكن الحملات المدونة أكبر من الغارات القبلية التى تسجلها الحماسة وما شابهها من كتب . وقد ألفنا أن نرى قوائم الخسائر فى الحروب الصغيرة بين الجمهوريات الإغريقية القديمة تضم المئات أو العشرات على الأقل . ولكن النقوش القبتانية التى نشرها وفسرها رودو كناكس Rhodokanakis تكشف عن نظام سياسى معقد لا يوحى البتة بأى نظام قبلى بدائى. إذ نقرأ فيها عن مجالس (للرأى) تبصيرية وتشريعية ، نجد أمثالها فى منظمات الدول الهلينية . ويقتضى ما يسميه رودو كناكس « مبدأ الاعلان » ،

أى عملية نقش أعمال هذه المجالس على الحجر ووضعها حيث يمكن قراءتها قراءة عامة ، يقتضى أننا نتكلم عن أمة قارئة ، ذات منظمات سياسية تكشف عن صنف من التقدم لا يمكن بلوغه إلا خلال مراحل لعله من الممكن أن نستعيد قصتها .

وبينما تتيح هذه النقوش الفرصة لاجراء أبحاث مغرية في فروع مختلفة من القانون والسياسة ، تمدنا أيضا بمعلومات نفيسة عن أديان الدول القديمة ، وتلقى بعض الضوء على ما وقع في المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة من تمهيد للإسلام . وعندما ظهر البحث عن القديم في العصر الأموي والعباسي الأول ، بذلت المحاولات لإعادة تبيين العقائد الوثنية القديمة ، ويمثل تلك المحاولة كتاب الاصنام لابن الكلبي ، الذى سيقابلنا فيما بعد . ولم تكن الآلهة المعبودة في جنوب بلاد العرب هى الآلهة المعبودة في الحجاز ، التى نستطيع أن نجد بعضها في النقوش النبطية في الشمال . وتتردد أمانا ، في نقوش الجنوب ، الآلهة ، التى لا نستطيع النطق بأسمائها ، وطبقات الآلهة ، التى لا نستطيع ان نتبين مرتبتها النسبية الآن . ويعزى إليهم ، كما قد رأينا ، النجاح في الحرب : ومن ثم تسجيل الحوليات ، كما لاحظنا ، القرابين أو الآثار التى اكتسبتها بخدماهما . ومن الممكن استبطا أشياء عن نظام العقائد ؛ وعن الاشخاص الأوثق اتصالا بالعبادة من غيرهم ؛ وعن وحيهم ، وعن الطريقة التى يحصل بها على أجوبة الاسئلة : وهى أحيانا شديدة التعقيد ، دالة على الصلات الغامضة بين الاضرحة المختلفة . ويبدو أن الآلهة كانت هنا أجدادا للملوك كما كانت الآلهة في بلاد الإغريق .

وأية مجموعة من المعلومات التاريخية يمكن استخراجها من نصوص لم يقصد منها أن تمدنا بما ! وسيادة ألقباء واحدة ؛ مهياة قميئا بارعا للغة التى تستخدمها ، فى جميع شبه الجزيرة كافية لأن تمدنا بنتائج هامة . فلا بد أن جميع شبه الجزيرة وقع

في زمن ما تحت سيطرة أمة متعلمة واحدة ، أو لا بد أن أمة ما حصلت على التفوق الفكري فتثقت غيرها . وما عرفه الإغريق القدماء عن بلاد العرب حصلوا عليه إما من قصص الرحالة أو من الارتياح العلمي المنظم في عهد الاسكندر الأكبر ، وقد حصلوا على معلومات أبانت النقوش أنها صحيحة صحة عجيبة . ولكن ما عثرنا عليه من عملات وقمائل صغيرة يدل على اتصال ببلاد الإغريق القديمة أوثق مما ذكر المؤرخون الإغريق . ويتجلى تأثير أئنا في العملات المكتشفة في اليمن : وهو ظاهر في فن النحت ، الشبيه بالفن السابق على القديم Pre-classical أكثر من شبهه بالفن القديم Classical . وتشيع فيه صور الملوك ، ونقوش الحيوانات والطيور ، وبعضها حسن النقش : ولكننا لم نجد بعد صوراً لآلهة وإلهات . وتمدنا بقايا المعابد والقصور ، والنقوش التي كانت عليها ذات مرة ؛ بآثار من الآثار المعمارية المتصورة على نطاق واسع .

وتحل الأعلام في النقوش كثيراً من المشاكل التي تواجه دارس التواراة . إذ تقابلنا هنا ألفاظ وعبارات ، لم تعرفها العربية الفصحى ، ولكنها ترد في لغة فلسطين القديمة . وتجذ الاسماء التي فقدت معانيها في السجل الانجيلي ، وفسرت أحياناً تفسيراً خاطئاً ، شرحاً بسيطاً هنا . وتوجد الاسماء القديمة للآلهة العربية متوارية عن الانظار في الاسماء العبرية التي لم يشك في وجودها فيها إطلاقاً : بل تمدنا أسماء العهد الجديد نفسها بمثال لهذا . فقد سميت كلوباً أو حلفى باسم إله وثني شأنها شأن مُردخاي .

ولكن يأتي عهد ، كما رأينا ، تختفي فيه الآلهة القديمة من النقوش ، ويظهر عوضاً عنها اسم الرحمن الدال على التوحيد ، والسائد على بعض السور الأولى من القرآن ، وترد عبارات مسيحية في نقش متأخر ، قريب من مبدأ الإسلام . والبقايا

القلييلة التي رأت الضوء من النقوش التوحيدية ذات أهمية بالغة لسبقها الالفاظ القرآنية خاصة ، وإن لم يظهر على وثية النصوص القديمة ما يربط بينها في وضوح وبين الوثية التي يعارضها القرآن . وتظن الروايات المأثورة أن التوحيد الذي سبق المسيحية في جنوب بلاد العرب كان يهوديا ، بل تحتفظ السجلات المسيحية الإغريقية بمناقشات دارت بين المسيحيين واليهود ، يظن أنها كانت في تلك المناطق . ومع ذلك يبين توحيد النقوش عن شبه قليل باليهودية : ولا نستطيع أن نبرر ذهابنا إلى أنهما دين واحد . ولعل سيادة دين توحيدى ما في جنوب بلاد العرب قبل فرض الغازى الحبشى المسيحية هي التي تفسر السهولة الظاهرة التي أعتق بما الإسلام في هذه المنطقة .

وإذن فلدينا حق تصنيف مؤلفى هذه النصوص القديمة مع المؤرخين العرب . وإن لم تكن اللغات التي استعملوها عربية المسلمين ، ووجب أن نستبط أن مؤلفيها كانوا يرفضون أن يطلق عليهم لفظ العرب ، الذى يبدو أنه كان يطلق عندهم على البدو . أما النقوش المؤرخة فترجع ، كما قد رأينا ، إلى حقبة حديثة نسبيا . واختلفت آراء الخبراء في مدى رجوع هذه النصوص إلى أكثر من ١١٥ ق . م . كما اختلفت في تتابع ومجال الامبراطوريات أو الدول التي اكتشفوا وجودها ، وترك بعضها آثار غامضة في السجلات الانجيلية أو القديمة أو النقوش المسمارية .

ولا أستطيع أن أتخيل ميدانا للبحث أكثر جاذبية للباحث المسلم الذى يرغب أن يكون رحالة ورائدا من جنوب بلاد العرب . ومن الممكن أن العراقيل التي يقال إنها تواجه الرائد الأوروبي في ذلك القطر مبالغ فيها : فلا تتفق أقوال الرحالة في تلك المسألة . ولا شك أن الرحالة المسلم لن يعوقه كثير من العقبات التي يشكو

منها بعض الرحالة . ومن المتعذر أن نظن أن الرحالة الأوروبيين القلائل الذين زاروا هذه المنطقة استطاعوا أن يأتوا على ذخائرها الأثرية ، الكثيرة المتنوعة . بمقارنتها بما تركته مدن الشام الفينيقية ، أو قرطاجنة العاصمة القديمة مثلا . فلقد خلفت دولة قتيان الغامضة وحدها من آثار منظمتها ، وقوانين مجالسها النيابية وأعمال ملوكها أكثر مما خلفته صيدا المشهورة أو قرطاجنة الأكثر شهرة . وإن السجل المخفور على حجر أو نحاس يتصل به ما يجعلنا أوثق اتصالا بالماضي من الرواية المنقولة شفاها من جيل إلى جيل أو التي ينقلها كتبة متعاقبون من نسخة إلى نسخة . ويقول شاعر ، مقارنا بين مدائحه والجوائز التي أخذها أو يؤمل أن يأخذها :

وفي تلك الاحوال ، لم تضع جوائز شكر الجميل ، وإن وجهت توجيهها
خاطنا ، وإنما بقيت على العصور .

